

مكونات ظاهرة التعصب ومعوقات التواصل الاجتماعي دراسة في الخلفيات والأبعاد

د. عمر بن بوذينة*

Abstract:

The components of the phenomenon of fanaticism derive their foundations from multiple religious, psychological, social and political backgrounds. If we consider the humanitarian aspect, the human vision is the component that must dominate all cultural and scientific formations. Therefore, any formulation of civilizational dialogue must be aware of the principles of human consensus and openness to the other. A common goal is a decent life for all.

Keywords: violence, fundamentalism, dialogue, social contacts, sociability, religiosity

تشكل المفاهيم المستجدة في الساحة الثقافية نقاشا طارئا حول الماهية والأصل، ولأن معظم المفاهيم في الخارطة الاصطلاحية للعالم العربي والإسلامي تستقي جذرها من التراث بما يمثله من مادة ذات أبعاد تاريخية ودينية؛ فإن مراعاة السياق الثقافي له أهميته القصوى في تشكيل المعنى لكل مفهوم. ولا يخفى عن النظر أن كثيرا من الأحداث قد بلورت وعيا جديدا بعدد من القضايا، فبعد أن اقتربت النماذج الحضارية نتيجة التقدم العلمي والتكنولوجي ازدادت وتيرة الاحتكاك، وبرز في الأفق نوع من العداء نتيجة التصلب على بعض المفاهيم التراثية، وحدث أيضا داخل الأنساق الواحدة بعض التصدعات التي شوهت الصور المثالية، فغدت مفاهيم التسامح والمساواة والتعايش والحوار في إطار ضيق لا يتسم بالمفهومية الجماعية رغم أن الرصيد التراكمي للحضارة قد أكد على تلك الأبعاد الإنسانية وطبقها في صور متعددة عبر التاريخ.

ولأن التعايش هو تعبير راق عن مفهوم الإنسانية فإن الحاجة إليه تدعونا إلى الوقوف على مكوناته وشروطه، والحياة الكريمة أدعى إلى استبعاد ما يقطع أسباب التعايش، ولعل أبرز عائق لمساره هو ظاهرة التعصب، تلك الظاهرة التي تتلون حسب كل مظهر ديني واجتماعي وحضاري، وتزداد عقدته كلما توغلنا في الإثنيات العرقية والدينية، بينما يظل الإنسان أكبر ضحية نتيجة التوضوع حول الرأي الواحد بذهنية أحادية لا تقبل التغيير أو التحوير.

* أستاذ محاضر، قسم الفلسفة، جامعة حسينية بن بوعلي - الشلف

إشكالية الموضوع

على الرغم من أن ظاهرة التعصب لها مبرراتها التاريخية وأسبابها النفسية والاجتماعية، فإن العودة للإنسان بما يمثله -من قيمة نفسية شعورية- يضعنا في صلب فهم الظاهرة، كما أن تحليل الخلفيات اللغوية والثقافية والسياسية والدينية يمكننا من توجيه أفق للتواصل وتأسيس ثقافة التحضر والتعايش الرشيد، ولعل أبرز سؤال يمكن الوقوف عليه في محاولة الفهم هو: هل يمكننا الدراسة العلمية لظاهرة التعصب من فك متعلقاتها؟ وهل أن معالجة ظاهرة التعصب تمكن من صياغة منظور ثقافي جديد يدعو إلى فقه التعايش؟. هذا السؤال العام يدعونا إلى التوسل بالأسئلة الفرعية التالية: ماهو التعصب وماهو التعايش؟ وماهي خلفياتهما التاريخية والعقائدية والنفسية والعرقية والسياسية..؟

أهداف دراسة الموضوع

- الوقوف على التعاريف الدقيقة لظاهرة التعصب ومعالجتها وفق رؤية علمية.
- بلورة النطاق الثقافي لظاهرة التعصب وموضعها ضمن المشكلة الثقافية.
- تتبع الخلفيات السياسية والاجتماعية والنفسية والعقائدية لظاهرة التعصب.
- تأسيس منظور إنساني للتعامل مع الآخر من خلال فهم الظاهرة الإنسانية ومتعلقاتها.
- بعث روح التحضر وتفعيل الرؤية الكونية world view في التعامل مع الآخر.

1- تعريف التعصب

يعرف التعصب بأنه هو واسطة طبيعية نحو التطرف، أي الجمود العقائدي والانغلاق الفكري، والتعصب هو روح الجماعات المتطرفة التي لا تقبل شكل الحوار الهادف، فالتطرف هو أسلوب انغلاق عقلي يتسم بعدم القدرة على تقبل أي معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة أو على التسامح معها، ويتسم هذا الأسلوب بالانغلاق على المعتقد وادعاء مطلقة الصدق حيث ننعلى الفكرة على المناقشة أو خضوعها للبحث ، في المقابل تتم إدانة كل مخالف لتوجهاته وتتخذ الإدانة أشكالا متعددة أخطرها الإقصاء ثم إعلان الحرب. وقبل أن نعرف التعرف وأشكاله وتنداعياته نطرح التساؤل: ماهي المكونات النفسية والمحددات الاجتماعية لموقف التعصب من الآخر؟.

تعريف التعصب: اختلف العلماء والباحثون في تحديد مفهوم التعصب نظرا لاعتبارات "حادثة المصطلح من جهة، وتعقد موضوع عالم الإنسان المتداخل الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية، والسياسية والثقافية والعمرانية والحضارية عموما من جهة أخرى..." (بن نعمان، 1997: 7) ويعتبر التعصب من المواضيع الهامة في حقل علم النفس الاجتماعي وهو يرتبط بموضوعي (الاتجاه والقيم) بدرجة كبيرة، وهناك الكثير من التعاريف سنحاول ذكر أهمها.

يحاول "بانمان S. Bakman تعريف التعصب Prejudice على أنه اتجاه أو موقف غير مبرر يكون فيه المرء مستعدا أو مهيئا لأن يعتقد ويدرك ويشعر ويتصرف بطريقة مؤيدة أو مناهضة لجماعة معينة من الناس أو لفرد ما(مرعي، 1984: 262) ونعثر في هذا التعريف على جملة من المحتويات التي تتراوح بين المحتوى الانفعالي

والمحتوى الإجرائي وكذا المحتوى الإدراكي ذو النزوع المعرفي، حيث يتغلب الجانب الانفعالي على باقي الجوانب الأخرى.

كما نعث على تعريف "أحمد زهران" "التعصب هو اتجاه نفسي جامد مشحون انفعالياً أو عقيدة أو حكم مسبق (مع) أو -في الأغلب أو الأعم- ضد جماعة أو شيء أو موضوع، ولا يقوم على سند منطقي أو معرفة كافية، أو حقيقة علمية (وربما يستند على أساطير أو خرافات) وإن كنا نحاول أن نبرره، ومن الصعب تعديله، وهو يعمي ويصم ويشوه إدراك الواقع، ويعد الفرد أو الجماعة للشعور والتفكير والإدراك والسلوك بطرق تتفق مع اتجاه التعصب (زهران، د.ت: 165) وهذا تعريف شامل من حيث أنه أضاف أن التعصب يصعب تغييره أو تعديله.

والتعصب هو نتيجة لخلل في التفاعل بين المتعصب ومن يتعصب ضدهم، مما يورث العداء الصريح بينهما حيث أن التعصب "موقف معاد ضد الجماعات الخارجية، وخاصة عندما لا يكون هناك تفاعل مباشر بين هذه الجماعات، وبين الجماعة التي ينتمي إليها الفرد المتعصب. (مرعي، 1984: 263)

أما كرتش وروثفيلد (David Krech, Richard S. Crutchfield) فيعتقدان أن التعصب هو تلك المعتقدات والاتجاهات المتعلقة ببعض المساوئ التي يوجهها فرد أو جماعة ضد أقلية عنصرية أو قومية. (مرعي، 1984: 263) ويعرف التعصب في معجم العلوم الاجتماعية بأنه "ضرب من الحماس الشديد الذي يدعو إلى الغلو والاستمساك برأي أو موقف معين وله مظاهر مختلفة وأوضح ما يكون في المواقف الوطنية والآراء الدينية. (مجموعة مؤلفين، د.ط: 160)

1-1- التعصب والتطرف

يعد التعصب مقدمة طبيعية لمظاهر التطرف، وبداية التطرف تظهر في ذلك الاحتباس الذهني والجمود الدوغمائي الذي يغلق على مطلقة الرأي الذي يتبناه المتعصب، والتطرف "أسلوب مغلق للتفكير يتسم بعدم القدرة على تقبل أية معتقدات تختلف عن معتقدات الشخص أو الجماعة، أو على التسامح معها ويتسم هذا الأسلوب بنظرة إلى المعتقدات تقوم على ماييلي (نعيم، 1983: 215):

- أن المعتقد صادق صدقا مطلقا وأبديا.
- وأنه صالح لكل زمان ومكان.
- لا مجال للمناقشة ولا مكان للبحث عن أدلة تؤيده أو تنفيه.
- المعرفة كلها لقضايا الكون لا تستمد إلا من خلال هذا المعتقد دون غيره.
- إدانة كل اختلاف حول المعتقد.
- فرض المعتقد على الآخرين ولو بالقوة.

ومن هنا يمكن القول أن التعصب هو استجابة طبيعية لمكونات التنشئة الاجتماعية ومظاهرها "حيث تراكم القيم والمواقف تجاه الأشياء والأفعال والأفكار والأشخاص شيئا فشيئا، وتفاعل فيما بينها لتشكل عند الطفل نسقا من الأفكار والاتجاهات والمنطلقات ينطلق منه التعصب..." (مرعي، 1984: 265)

- كما أن المتعصب يحمل من الصفات التي تدل على تعصبه وتظهر من خلال بعض مواقفه، ومن بينها:
- الحاجة إلى الوضوح والصرامة وعدم التسامح مع الغموض، حيث يفسر المواقف بحسب اتجاهاته وقناعاته.
 - الحاجة إلى تحقيق المكانة المتفوقة، وتظهر من خلال تصنيف الناس والجماعات الأخرى، ويرى نفسه يملك اليقين وغيره في الضلال.
 - الحاجة إلى الأمن: بالصراع بين جماعة وأخرى يؤدي إلى تماسك الجماعة الواحدة وتعصب أفرادها ضد الجماعات الأخرى.
 - الحاجة إلى التمايز: الشعور بالتمييز عن الجماعات الأخرى والتفوق يؤدي إلى التعصب ضد الجماعات الأخرى.

- الميل إلى التسلط والتشبث بالرأى وعدم الإيمان بالديمقراطية والمساواة.

كما أن للتعصب أسباب تدفع الفرد والجماعة إلى تتبع هذا السلوك المختلف لأنه تعبير عن قصور، وهذا القصور هو دليل جهل أو نقص معرفة. (بن نعمان، 1997: 13) والمعاني التي نستخلصها من تحليل الواقع أن التعصب بعبارة واحدة هو التطرف، ويتأتى في الطرف المقابل له هو الاعتدال والاعتدال. كما أنه يتبادر إلى ذهن الكثيرين أن التطرف هو الخروج عن المألوف، وذلك يجعلنا نسلم أن التطور الحضاري العالمي في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية قد مثل خروجاً عن المألوف وكما اعتاد عليه الناس، بل أن الأديان السماوية كانت خروجاً عن ما ألفه الناس. (نعيم، 1983: 217)

2- التفسير العلمي للتعصب

يعرف التعصب على أنه آلية نفسية تؤدي وظيفة خاصة يستطيع بها الفرد إنتاج سلوك معين حيث تظهر تصرفات جديدة متساوقة مع المكنونات النفسية التي يحدوها التوتر والقلق في تسويق الفكرة والوقوف على جذارتها، والتعصب كمظهر نفسي يمكن تقبله وفق حدود الأنا، لكنه يتخذ أشكالاً عنيفة في معالجته للآخر، حيث يكون التعصب الضدي من أعقد المواقف التي لا يمكن حللتها دون النظر إلى الاعتبارات النفسية المصاحبة، وقد حاول العلماء تفسير الظاهرة عن طريق مجموعة من النظريات بأبعاد مختلفة، نحاول عرض بعضها:

أ- النظرية الثقافية

على الرغم من أن التعصب هو ظاهرة نفسية بالأساس إلا أن كثيراً من العوامل الاجتماعية والثقافية تساهم في توطيده وترسيخ مبادئه الأولى، فاكتماب ظاهرة التعصب يتم عبر وسائط متعددة أهمها البيئة الاجتماعية وكذا المجال الإعلامي الذي يلعب دوراً فاعلاً في تسويق بعض المظاهر السلبية، كما يلعب الوسيط السياسي دوراً مشابهاً عبر تضخيم الذات الوطنية التي قد تأخذ منحى آخر عكس ما تأمله متطلبات الوطنية الصحيحة.

(ب) - النظرية البيئية

وترى هذه النظرية أن التميز العنصري الناجم عن التعصب يخلق ظروفًا اجتماعية وخصائص فردية تدعم اتجاهات التعصب وتعزيزها، ومع مرور الوقت يكتسب تعصب جماعة معينة ضد جماعة أخرى صفة معيارية اجتماعية في المجتمع الذي تسود فيه هذه المشاعر. (نعيم، 1983: 273) ويمثل كل من الباحثين الاجتماعيين كرتش وروثفيلد (Kretch et Crutchfield) لحالات التمييز العنصري في أمريكا حيث يؤدي التعصب الناجم إلى خلق ظروف اجتماعية جديدة وخصائص فردية تدعم اتجاهات التعصب وتعزيزه.

(ج) - نظرية الاستغلال

تقوم هذه النظرية على جملة الافتراضات التي تقول بوجود علاقة بين تفاعل الأشخاص وبين مستوى النتائج المتوقعة، والتعصب يقع بين التفاعل وبين مستويات النتائج المتوقعة " وهذا يعني أن كل فئة من الفئتين المتصارعتين ستبدل قصارى جهدها لزيادة فرص تحقيق مكاسب على حساب الأخرى" (مرعي، 1984: 277) ويحدث هذا في المجال السياسي مثلاً، حيث تلعب البروباغندا دوراً حاسماً في مستويات التفاعل، ولها نتائج وخيمة على مختلف الأصعدة حيث ن تدخل اعتبارات غير موضوعية وربما لا أخلاقية.

(د) - نظرية الإحباط

يرى علماء النفس أن الإحباط له تأثيره في تشكيل التعصب، حيث يعتمد الفرد إلى ترجمة إحباطه عبر الالتواء على حالته النفسية وإعطاء المسوغات التي يمكنها الحد من آلامه النفسية فيكون التبرير أول الخطوات الإجرائية من قبيل: أن ما يصاب به هو من عدم تقبل وجهة الرأي كحيلة دفاعية لاشعورية للقلق وكرهية الآخر "فيعمد الفرد إلى إزاحة هذا العدوان وإسقاطه على جماعة أخرى، ويرى الباحثون أن التعصب نمط من النرجسية، وحب الذات" (مرعي، 1984: 272)، وهذا ما يؤدي إلى عدوان آخر مثل التجني على الآخرين والبحث عن نقاط الضعف فيهم، وممارسة أساليب التشويه وأسلوب الصدمات لخبرته الاستبطنية بها.

3- التعصب الديني

بالنظر إلى أن التعصب ظاهرة متعلقة بالاختلاف فإن الحديث عن مظاهر الاختلاف يقودنا إلى تتبع ألوان التعصب، فليست وحدها الاختلافات الإثنية التي شكلت ذلك الصراع الممتد أطواره في المجال السياسي والاجتماعي، بل برزت على السطح حتى في العقود الأخيرة مظاهر التعصب للدين والعقيدة والمذهب، وقد ينشأ الاختلاف المذهبي ضمن النسق الديني حتى داخل المجتمع الواحد، فيصبح العضو "آخرًا" ضمن مجال آخر سرعان ما تتشكل حوله مظاهر العداء والإقصاء نتيجة التعصب، وهنا علينا مساءلة أنماط التواصل الاجتماعي: هل يفترض التواصل الإيجابي مجارة اللون المذهبي والاندماج في العقيدة الواحدة والمذهب الواحد، أم أن طبيعة التواصل تتعالى على المتشابهات الفكرية نحو مقتضيات الإنسانية التي تعبر المسافات الضيقة إلى عالم أرحب وأوسع.

ولو تتبعنا تاريخ الأديان لوجدنا أن التعصب للأصول الدينية يستتبع ظهور تلك الأديان وانتشارها، فلم يخل دين من استصحاب إشكاليات مثارة حوله، مما ولد إلى انبثاق جماعات دينية حول تحوم النصوص التي

اختلفت التأويلات فيها، فكانت كل فرقة تدعي أحقيتها بالتفسير النهائي المغلق عن أي نقاش، وقد تطرفت الجماعات الدينية عبر إخراج مظاهر التعصب عن طوعها الطبيعي، ووصم المخالفين بأبشع الصفات، الأمر الذي أدى إلى حروب طاحنة شوهت تاريخ البشرية وأوهت صرحها الذي ظلت تبنيه بالعقل والفكر المستنير. وحتى تاريخ الحروب الصليبية شاهد على الصراع الديني، لما التبس الديني بالسياسي وغدا إذكاء كل توجه سياسي باللون الديني، وفي الخطاب الإسلامي انشغل النص وتم تطويره لخدمة أغراض الحكم، وانتقل الدين - تكادماً للإنسانية - إلى سبب للفرقة والتشطي والدمار بسبب التفسيرات القاتلة لمعطيات النصوص بنظرة مجتزأة عن التطورات الحاصلة في الساحة العالمية بمكوناتها.

ولو تأملنا في آفة التعصب الدينية في مكوناتها الجذرية فإننا لا نعدو أن نصنفها إلى أربعة مظاهر:

1- الخلفية العقائدية

تتجلى الخلفية العقائدية في تعدد المرجعيات الدينية، حيث تظهر كل فرقة دينية بمسميات مختلفة لأصولها وتجمع حول أسماء قامت بتفسير المقتضيات الدينية ونصوصها حسب رؤية معينة، وكان من نتائج ذلك أن ظهرت أروحيات متعددة على سطح خارطة العالم (الإسلامي أو المسيحي)، ونتيجة لغياب ثقافة التعايش - التي تملأها النصوص الدينية نفسها - فقد ظهرت مشاكسات بعد محاورات هنا وهناك؛ لم تلبث أن نشأت سجالات وحروب أدت إلى إضافة عبء آخر، وشكل جديد من أشكال التعصب المقيت؛ لا تزال آثاره إلى اليوم، وفي الطرف المقابل ظهرت نزعة دوغمائية بطابع إقصائي للدين، كما يرى محمد عمارة أنه "إذا كانت علمانية الغرب حصر الدين في الكأس، وهذا يعني أن علمائهم الإلحادية أو المادية أكثر تسامحاً من علمائنا نحن المسلمون والعرب، فقد حاربنا الدين حتى في المساجد، بل حتى وصل الحال إلى إزالتها بنزعة علمانية غير مصرح بها بل هي أسوأ من العلمانية إذا كانت العلمانية سيئة بنظرهم..." (عمار، 2003: 33)

2- الخلفية السياسية

يرى كثير من المؤرخين أن جميع الفرق الدينية ظهرت نتيجة ولاءات سياسية أو كاستجابة لحدث سياسي، ولو عدنا إلى التاريخ الإسلامي مثلاً لوجدنا أن السلطة السياسية كان لها الدور الفاعل في إعلاء المذهبية؛ وبغض النظر عن تلك المحاورات بين المذاهب فإن الأحداث الجسام التي انجر عنها الخصام السياسي قد أحدثت شرخاً كبيراً بين أتباع المذاهب، وامتألت السجون بالعلماء والفقهاء وقتل الكثير من مفكري المسلمين نتيجة عدم الانخراط في سياسة هذا أو ذاك، وفتحت تلك الممارسات المجال واسعاً لتدليس النصوص التراثية، وكتب كثير من الزيف لا تزال نتجعه حتى اللحظة. وهو ما جعل الدين راكداً في تقديم قيم جديدة لمجتمعات متكافلة، الأمر الذي وضع المجتمعات الأوروبية - مثلاً - في الوقت الحاضر ترى بأن الدين "أصبح تقليداً جامداً ولم يعد فيه من الإيمان لإحيائه وتنويره، وهو ما دفع المجتمعات إلى تحويل النظر عنه نحو السياسة التي بدت منذ القرن التاسع عشر المزود الرئيس بالقيم والأفكار والمبادئ اللازمة لبناء صرح الاجتماع الجديد" (غليون، 2007: 27)

3- الخلفية النفسية الاجتماعية

نتيجة لعدم فهم مضامين الدين - كرسالة سلام- وتجذر ثقافة القبيلة وتغول السلطة الأبوية؛ نشأ لدينا كائن ذو بعد واحد، والكائن ذو البعد الواحد هو كائن لا يتقبل إلا ما يستقبله أو ما يتوافق مع حمولته الإيديولوجية، ونتيجة أن الثقافة الدينية-بغير قصد- قد غرست في الكثير من النفوس ذهنية السوبرمان، السوبر منقذ، والشيخ الواحد والقطب الواحد، فلا يتلصص الخلاص إلا وفق ذهنية أحادية ذات مركزية متصلة لا تقبل المرونة أو التعامل بعقلانية ترجيحية، وكل حدث سياسي أو اجتماعي أو حتى كوسمولوجي يبعث في نفسه التوسل بالنصوص الدينية للفهم، باستصحاب نهائي أن لا تفسير لتلك الأحداث إلا عبر وسيط نهائي هو الكتب المقدسة سلفا.

4- خلفية الاستبعا الثقافي

بالنظر إلى أن المنتج الثقافي يتشكل في بعض من مراحله من المعطيات الدينية، فإن الثقافة تتلون بالتوجه الديني، ولو تساءلنا عن نوع العلاقة بين الثقافة والدين فإنه يتوجب علينا التوسل بالمقاربة التاريخية حيث تواجهت فرضيتان منذ الربع الأخير من القرن العشرين : إحداهما ترى في العلنة سيرورة محتمة هي شرط للحدثة ونتيجة لها في آن واحد ، والأخرى تسجل أو تحيي عودة الديني، مدركة إما على أنها احتجاج على حدثة مستلبة أو وهمية وإما كشكل مختلف للدخول في الحدثة. "وهذا الجدل ليس جدلا فكريا صرفا: فهو في صلب النزاع حول اللائكية في مقابل الديني، وعلى حساب الحرية الفردية إذا اقتضى الأمر، أم إن التجديد الديني ما هو إلا انعكاس للتنوع وللغنى وللحرية الإنسانية". (أوروا، 2012: 20)

فأغلب المفاهيم المتداولة اليوم في العوالم الثقافية والفكرية المختلفة تنطلق في جوهرها من محورية الآخر وحاكميته ، فالإثنولوجيا وكل ما يدور في فلكها لا تفعل شيئا أكثر من صهر ثقافات الشعوب البدائية والقديمة في قوالب الفكر الغربي وبالتالي التضحية بخصوصيتها وأصالتها، حيث ينطلق هذا الموقف من أنه لا مجال لمعرفة الآخر.

ويكون الدين هنا عبارة عن مكّون "غريب" يوازي أو يبتعد -على الأقل- عن المنظومة الثقافية لمجتمع يواكب التحولات الصناعية والاقتصادية والاجتماعية والتضحية بالمفهوم الجمعي له -في سبيل المسيرة والمحاكاة- أمر محتوم ولازمة من لوازم الانخراط في التحول الذي تبدو ملامحه مبشرة بالتحضر المبني على تجاوز كل المفاهيم التقليدية غير المعرفية، بيد أن الثقافة في الفضاء العربي مستلهمة في كثير من تعبيراتها بعض التقاسيم الدينية التي لا تتجاوز الإطار الإيديولوجي المحكوم بنصية تراثية ممتدة فيه ومتماهية معه.

وهنا يتجلى مأزق الانخراط والانتماء، الانخراط في عملية التحضر والانتماء إلى الهوية كإنجاز كمي متراكم وهو السؤال الذي حاول تبريره بعض المفكرين الذين انتبهوا إلى الرصيد الديني كموجه للثقافة التقليدية، واتجهوا إلى المحرك الفاعل وهو النص المقدس.

4- التعايش ومقدمات التواصل

1-4- مفهوم التعايش

التعايش في اللغة مشتق من العيش، والعيش الحياة (آبادي، 1987: 409). يقول صاحب معجم اللغة العربية المعاصرة: تعايش يتعايش، تعايشاً، فهو مُتعايش (أحمد، 2008: 1583) وتعايش الجيران: عاشوا على المودة والعطاء وحسن الجوار تعايش الناس: وُجدوا في نفس الزمان والمكان. بالاستناد إلى المصطلح الإنجليزي التعايش coexitance أو المساعدة على العيش، أو عيش ودع غيرك يعيش، طالما هو موجود مثلك. والتعايش في الاصطلاح يقصد به العيش المتبادل مع الآخرين القائم على المسالمة والمهادنة. ويمكننا أن نعرف التعايش بأنه الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثقافي ولأشكال التعبير والصفات الإنسانية المختلفة. وهذا التعريف يعني قبل كل شيء اتخاذ موقف إيجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوقهم وحرياتهم الأساسية المعترف بها عالمياً. وتعريف آخر ذكره بعض الباحثين (العسيلي، 2012: 4) التعايش: ضرب من التعاون المشترك الذي يقوم على أساس الثقة والاحترام المتبادل بطوعية واختيار، والذي يهدف إلى تحقيق أهداف يتفق عليها الطرفان أو الأطراف التي ترغب في تقبل بعضها.

ولو نقلنا هذه التعريف إلى مجال التعاون بين أتباع الأديان؛ أمكن لنا أن نقول إن التعايش بين أتباع الأديان؛ إذا تم في حدود هذه المستويات وقام على هذه الأسس؛ كان ضرورة من ضرورات الحياة على هذه الأرض، تستجيب للدواعي الملحة لقاعدة جلب المنافع ودرء المفاسد، وتلبي نداء الفطرة الإنسانية السوية للعيش في أمن وسلام وطمأنينة، حتى ينصرف الإنسان في دعة وسكينة، إلى تعمير الأرض، بالمعنى الحضاري والإنساني الواسع لهذا التعمير. فالتعايش - بهذا الفهم الموضوعي لطبيعته ورسالته - هو اتفاق الطرفين على تنظيم وسائل العيش أي الحياة فيما بينهما وفق قاعدة يحددها، وتمهيد السبل المؤدية إليه، إذ أن هناك فارقاً بين أن يعيش الإنسان مع نفسه، وبين أن يتعايش مع غيره، ففي الحالة الثانية يقرر المرء أن يدخل في عملية تبادلية مع طرف ثانٍ، أو مع أطراف أخرى، تقوم على التوافق حول مصالح، أو أهداف، أو ضرورات مشتركة.

4-2- التعايش وسياقاته الفكرية والتاريخية

اقترن مصطلح التعايش في الأدبيات السياسية بمسائل السلم وفض النزاعات، ولعل مصطلح التعايش السلمي من المصطلحات الحديثة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، وهو مصطلح يراد به: حالة السلم التي تعيش فيها دول ذات أنظمة اجتماعية، وعقائد سياسية متباينة ولا سيما كتلة الدول الرأسمالية الغربية، وكتلة الدول الاشتراكية دون نشوب الحروب بينها.

وتذهب الموسوعة السياسية إلى أن أول من أطلق شعار التعايش السلمي PEACIFUL COEXISTENCE، هو "نيكيتا خروتشوف"، الذي كان لا يعني به تراجع بلده الاتحاد السوفياتي عن تحقيق أهدافه المعلنة، بقدر ما كان يعني به محاولته تحقيق تلك الأهداف بطريقة تنسجم مع مقتضيات التغيرات التي طرأت على المسرح الدولي، كوجود ما يُعرف بتوازن الرعب. (الموسوعة، 1974: 108)

والتسامح الديني الذي عرفته أوروبا مع نشوء حركة الإصلاح الديني، كان تسامحاً بين الطوائف المسيحية، ولم يكن يشمل هذا التسامح التعايش مع غير المسيحيين. ففي إنجلترا على سبيل المثال، نهض بالدعوة إلى التسامح ثلاثة من المفكرين البارزين هم: هارنجتون HARRINGTON وتاييلور TAYLOR وملتون MILTON، وقد

أدرك أولهم أن الحرية السياسية لا تستقيم بغير حرية دينية مطلقة، لأن الحرية الدينية تتضمن حرية الضمير، وهذه تتضمن بدورها الحرية المدنية، وتكون حرية الضمير متى تمكن الإنسان من مزاولة عباداته ومباشرة تعاليم دينه وفقاً لإيماء ضميره وحده، من غير عائق أو تدخل من الحكومة. "وقد أقام ملتون دفاعه عن التسامح على أساس أن قيام الحق لا يتطلب الاضطهاد، بالإضافة إلى أن الاضطهاد يعوق اكتشاف الحقيقة". (طويل، 1991: 123)

وبالنظر إلى الدلالة الاصطلاحية للتعايش فإن فهم أصوله يقع ضمن الرؤية الحضارية التي تجمع بين المعطيات الثقافية والخصوصية الإنسانية وكذا المشترك البشري، ولو عقدنا جسراً تواصلياً مع بعض المفاهيم القريبة للتعايش لعثرنا على مفهوم التسامح كأقرب مكون يجمع بين الأنا والآخر، فالتسامح يعني التنازل للآخر عن بعض الخصوصيات، وقد يبدو في أول الأمر أن التسامح يستبطن نزعة استعلائية قوامها تملك الحق مع خفض الجانب، وقد يستعاض عنه بفكرة المساواة التي تبدو أشمل من التسامح بوصفه يمنح السلطة لأحد الطرفين، وعلى هذا فإن التسامح والتعايش والمساواة وجب دمجهما في مجموع كلي غير منفصل الأطراف، وهو ما تعبر عنه ضرورة التواصل الإيجابي والفعال، وفعل الوجود الكوني الرحيم.

خاتمة

يعتبر البناء الثقافي للمجتمعات مرتكزاً أساسياً في رقيها، حيث لا تنفصل التشكيلات الثقافية عن الأطوار العلمية الأخرى التي تسهم في نمو المجتمع وتطوره بناءه، ومراعاة السياقات الاجتماعية والفكرية وكذا النفسية شرط هام في صناعة المنظومة القيمية التي تنشُد فعل التحضر، وبالتالي فإن الوقوف على المظاهر الإنسانية وحيثياتها ومتعلقاتها عمل حضاري يؤسس للبعد الأخلاقي وفق بعده الكوني المتواصل. وعلى هذا الأساس فإن مظاهر التعصب والتطلع إلى السيطرة وحب التغلب والتطرف هي من مكونات هدم معالم الفعل الحضاري الذي يقف على مفاهيم إنسانية أهمها التعايش والتواصل ونبذ أشكال العنصريات الدينية والعرقية والسياسية... الخ.

وبعد وقوفنا على مظاهر التعصب وأشكاله وتحليل بنيته علمياً أمكننا أن نقول أن التعصب في منشئه متعدد الأقطاب، وأبرز مكون له هو الجانب النفسي حيث تعتبر الحياة النفسية أبرز ما تفقده المجتمعات التي تعيش خارج إطار الحضارة، وما أشكال التطرف والفرقة والانغلاق الذاتي - كمظاهر اجتماعية - إلا استجابة للروح المعطلة للإنجاز الحضاري. ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة كالتالي:

- يحدث التعصب نتيجة لخلل في التفاعل الاجتماعي، فطبيعة العلاقات الاجتماعية تنبني على الرؤى المشتركة التي لا مجال فيها إلى الإقصائية أو التحيزات ضمن مجال وآخر.

- والتعصب هو استجابة طبيعية لمكونات التنشئة الاجتماعية ومظاهرها، كم أن التعصب هو اتجاه نفسي جامد مشحون انفعالياً، ومعالجة الظاهرة تتم بالاعتناء بمكونات التنشئة الاجتماعية وعناصرها الثقافية.

- والتعصب كآلية نفسية يعد من أعقد المواقف إذا كان ضدياً، ولا يمكن حللته إلا بتتبع الظواهر النفسية كالإحباط الذي يعطي مسوغات التعبير عن السلوك ضد الآخر.
- واكتساب ظاهرة التعصب يتم عبر وسائط متعددة أهمها البيئة الاجتماعية وكذا المجال الإعلامي الذي يلعب دوراً فاعلاً في تسويق بعض المظاهر السلبية، كما يلعب الوسيط السياسي دوراً مشابهاً ولذلك كان من الواجب التنبيه على ضرورة تنقية الخطاب الإعلامي والسياسي من صور العنف وأشكال التطرف ومعاداة الآخر.
- ضرورة فهم غايات الدين من الضرورات القصوى، لأن غاية الدين خدمة الصالح العام وتهيئة الإنسان للحياة الكريمة، وعدم النظر إلى معطيات النصوص المقدسة بنظرة مجتزأة عن التطورات الحاصلة في الساحة العالمية بمكوناتها.
- كما أن تسويق الوجه الحضاري لثقافة التعايش لازمة من لوازم التقدم في أفق الحوار العالمي الذي ينشد السلام بين الأفراد والجماعات في سبيل حياة أفضل في عالم أفضل.
- وإذ توصي الدراسة بفتح قنوات لتشكيل مرصد لثقافة الحوار والتعايش وتبني الأفكار الجديدة في هذا السياق بغرض إنشاء منتدى عالمي يجمع بين الأصوات المختلفة ذات التوجه العالمي تشرف عليه الهيئات العلمية بمختلف توجهاتها وتخصصاتها المعرفية.

قائمة المراجع

- آبادي، الفيروز. (1987م). (ط2). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- أحمد، مختار. عبد الحميد، عمر. (1429هـ، 2008م). (ط1). معجم اللغة العربية المعاصرة. عالم الكتب.
- أورو، أوليفيه. (2012). (ط1). الجهل المقدس، (زمن دين بلا ثقافة). بيروت: دار الساقي.
- بن نعمان، أحمد. (1997). (ط1). التعصب والصراع العرقي والديني واللغوي، لماذا وكيف؟. الجزائر: دار الأمة.
- زهران حامد. (دت). علم النفس الاجتماعي. القاهرة: دار عالم الكتب. ص165.
- الطويل، توفيق. (1991). قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام. القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي.
- العسيلي، عبد الله عبد المنعم. (2012). التعددية والتعايش الثقافي في ضوء الشريعة الإسلامية. فلسطين: منشور جامعي
- عمارة، محمد. (2003). الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية. دار الشرق.
- غليون، برهان. (2007). من العلمانية إلى العلمنة. مجلة الآداب، 11/10.
- مجموعة مؤلفين. (دت). معجم العلوم الاجتماعية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مرعي، توفيق وبلقيس، أحمد. (1984). (ط2). الميسر في علم النفس الاجتماعي. عمان: دار الفرقان.
- الموسوعة السياسية. (1974). (ط1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- نعيم سمير الغول. (1983). المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف. مجلة العلوم الاجتماعية، مجلد 11